دور الأقـــدار في صناعة التغيير
في ضوء القرآن الكريم

د. فـــؤاد البنـــــاء

أستاذ الفكر الإسلامي السياسي المشارك ، كلية الآداب جامعة تعز

ملخص البحث

يعالج البحث مشكلة ميل كثير من المسلمين إلى الفهم الجبري للقدر ، بمعنى أن القدر عندهم أشبه بالريح العاصفة ، والإنسان ما هو إلا ريشة في مهب هذا الريح لا يملك من أمره شيئاً ، مما أضعف تعامله مع المنهج السنني ومنظومة الأسباب ، انتظاراً للأقدار واتكالاً على مالكها ، فساهم ذلك بقوة في إضعاف فاعلية الأمة وتوهين جهازها المناعي وإيصالها إلى هذه الدركة من الغثائية والوهن الحضاري ، ويهدف البحث إلى تفكيك القراءات الخاطئة للمفاهيم القرآنية المرتبطة بصناعة دوائر الأقدار في مساحاتها النفسية والعلمية والعملية ، بحيث تتم القراءة الكلية لهذه الآيات في ضوء التجربة الإسلامية الأولى في تجسيد هذه المفاهيم ، سواء في مرحلة الفكر أو في مرحلة الفعل . وتكمن أهمية البحث في النقاط الآتية :

١ـ مساهمته في الإجابة عن سؤال "لماذا تخلفنا وتقدم الآخرون" ، حيث يتضح أن الفهم الجبري للقدر ، يضعف فاعلية الفرد ، ويقتل قوة المجتمع .

٢ـ يعمل على تفكيك القراءات الجزئية والمنقوصة للقرآن ، وهي السند والحجج التي يتسلح بها السلبيون والقاعدون عن الإصلاح والتغيير ، مرتدين ثياب القدر المزيفة.

٣ـ يعمل على توضيح المنهج السنني في القرآن ، وهو المنهج الذي يُحطّم أغلال الأوهام، ويدمر أرضية الانتظار ، مطلقاً طاقات الفرد وقدراته ، وبالتالي فإنه يعطي للسنن والأسباب مشروعيتها الإسلامية .

وقد اعتمد البحث المنهج التحليلي الوصفي ، إذ يقوم بجمع المفاهيم المكونة لمنظومة القدر ، واصفاً المنهج القرآني الكلي في التعامل معها ، مع تحليل النصوص في ضوء منهج التدبر القرآني .

المقدمة

تعاني أمة المسلمين اليوم من تخلف حضاري شامل ، يتضح من خلال : ضعف الفاعلية وحضور الغثائية ، بروز التبعية على حساب الاستقلال والتميز ، حضور الاستبداد وتآكل الحريات

والحقوق الإنسانية ، بروز الفرقة واختفاء الوحدة ، وهذا كله جعل المسلمين في مؤخرة الركب وذيل القافلة الإنسانية .

وعندما يبدأ الخوض في التفاصيل تحضر علل الأمة المشار إليها آنفاً ، لكن عدداً كبيراً من مفكري الأمة وعلمائها الكبار يعتبرون أزمة الأمة أزمة فكرية في الأساس ، إذ تتمزق طاقات الأمة بين دعاة تقليد السلف ودعاة تقليد الغرب ، ومرة أخرى تتجسد الأزمة الفكرية في رؤية هؤلاء وأولئك ، لأن حضارة هذه الأمة بل الحضارات كلها ما قامت إلا على إعمال العقل في نواحي الحياة .

ومع مرور السنوات يزداد المتتمون إلى خانة التدين ، لكنه في أكثره ما يزال تديناً تقليدياً عاطفياً ، لم ينجح في تجسير علاقته بالقرآن والسنة مباشرة ، ولذلك ظهر في التدين المعاصر بعض علل التدين عند جماعات من المسلمين خلال القرون المتأخرة.

وحول دور الأقدار في صناعة التغيير ، سيمضي البحث وفق ما أثبتناه في الملخص من خطوات لمعالجة المشكلة وبيان الأهداف وإبراز الأهمية ، في ضوء القرآن الكريم وتجليات ذلك تتراءى في مسارات ثلاثة هي مطالب البحث ومباحثه : الأقدار النفسية ، الأقدار العلمية ، الأقدار العملية .

المطلب الأول

الأقدار النفسية

هناك عدد من القيم والمبادئ النفسية التي تخلق دافعاً للتغيير ، لكنها صارت محلاً للتجاذب بين طرفين متشاكسين ، مما أدى إلى سوء فهم كبير لها ، ولتتحول إلى معول هدم في صرح فاعلية الفرد على المدى البعيد ، ومن أهمها :

١- المشيئة: عندما نقرأ آيات القرآن نجد أن مشتقات "المشيئة" وردت٢٣٦ مرة توزعت بين الانتساب إلى الله والإضافة إلى الإنسان .

ونتيجة الأزمة الفكرية وسوء الفهم الناتج أساساً عن القراءة الجزئية للقرآن ، فقد ظهر من أثبت كل المشيئة للإنسان وهم القدرية ، وفي الطرف الآخر هناك من نفى عن الإنسان كل مشيئة واختيار ، معتبراً إياه أشبه بالريشة في مهب الريح وهم الجبرية .

ولو نظرنا في المواضع التي ورد فيها الفعل الماضي "شاء" وهي ستة وخمسون موضعاً ، لوجدنا بأنها نسبت المشيئة إلى الله في ستة وأربعين موضعاً ، وإلى الإنسان في عشرة مواضع وهي كما يأتي :

أ- مشيئة الله: من الآيات التي نسبت المشيئة إلى الله قوله تعالى {ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم} [البقرة : ٢٠] لكنه تعالى بمشيئته لم يُذهِب ذلك ، لأنه أراد من الإنسان أن يمتلك أدوات

الوعي والفكر والاختيار ليتحمل مسؤولية اختياره .

وقال{ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم}[المائدة: ٤٨] ، {ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم}[البقرة: ٢٢٠] لكن الله لم يجعل الناس أمة واحدة ولم يعنت الناس ، مع أنه قادر على ذلك فهو عزيز وحكيم ، لكنه أراد أن يختبر الناس ؛ لأنه ما خلق الحياة إلا لذلك {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور}[الملك: ٢] فهكذا اقتضت مشيئته وحكمته ، ولكن هذا لا يحدث إلا إذا توافرت للإنسان المشيئة للاختيار .

ب- مشيئة الإنسان: قال تعالى{وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}[الكهف: ٢٩] ، {إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً}[المزمل: ١٩] .

وقد تواطأت في هذا السياق آيات عدة لبيان أن القرآن تذكرة وأن الرسول مذكّر لمن شاء من الناس أن يتذكر . وأهم هذه الآيات: طه : ١-٣ ، يونس : ٩٩ ، الكهف : ٢٩ ، الزمر : ١١-١٥ ، الحاقة : ٣٨-٤٨ ، المدثر : ٤٩ - ٥٥ ، الإنسان : ٢٩ - ٣١ ، عبس : ١١ ، ١٢ ، التكوير : ٢٧ ، ٢٨ ، الغاشية : ٢١ ، ٢٢ .

وقد قام العلامة عبدالرحمن حبنكة الميداني بجمع هذه الآيات في تفسيره الموضوعي الرائع ، وشرحها بما يجسد الفكر الإسلامي الوسطي في فهم القدر ، كما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه(١).

ومن بين تلك الآيات قوله تعالى {إنها تذكرة فمن شاء ذكره}[عبس: ٢١] . إن من أبرز صفات القرآن الدائمة أنه ذكر "يُطَالَب المؤمنون به أن يذكروه دواماً بألسنتهم ، وأن يتذكروا ألفاظه ، وأن يتذكروا معانيه بأفكارهم ، وأن يكون وجوده بينهم تذكرة حاضرة بأمور دينهم وآخرتهم ، وواجباتهم نحو ربهم ، كما أن التذكرة التي يتخذها الناس وسيلة حاضرة تذكرهم بحاجاتهم التي يهمهم أن يتذكروها . أما قوله تعالى {فمن شاء ذكره}[عبس: ١٢] فيدل على أن من شاء من المكلفين قَبِلَ هدايته ، وتعلّم مضامينه ، وعَرَف ترغيباته ، وترهيباته ، ثم كان مع آياته في ذكر متكرر ليكون له تذكرة حقا" (٢) .

والله تعالى يؤكد أن من أراد الاستقامة فإنه سيجدها في الذكر "القرآن" إذا استمدها منه ، من خلال منهج التدبر والفهم ، كأن من لا يتدبر القرآن فإنه لا يريد الاستقامة ولا الهداية ، قال تعالى {إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم} [التكوير: ٢٧ ، ٢٨] "أي أنه ذكر يتذكر به من وَجَّه إرادته لأن يستقيم على الجادة الواضحة ، جادة الحق والعدل . أما من صرف نفسه عن ذلك

ولم يرد إلا الاعوجاج والانحراف عن طريق الحق والصواب فذلك الذكر لا يؤثر فيه ولا يخرجه من غفلته. على مشيئة المكلف تتوقف الهداية، ولا ريب في أن كل مكلف قد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ليطلبه وأن يحفز عزمه إلى الخير ليكسبه" (٣).

ويفسر هاتين الآيتين أحد أعلام الفكر في هذا العصر، فيقول" أي يتلقونه أولاً، فيتفكرون في معانيه، ويتدبرونه ثانياً، فيعملون بما يهديهم إليه ثالثاً، ثم يجعلونه ذكراً لهم آناً فآناً، يراجعون آياته، ويذكرون منه دواماً ما يلائم الأحوال والمناسبات التي تستدعي منه بياناً بشأنها" (٤).

وهذا يعني عدم تناقض المشيئتين بل تكاملهما، كما يتأكد ذلك في النقطة التالية.

ج- تكامل المشيئتين: لقد خلق الله الإنسان وأودع فيه إمكانات الخير والشر بمشيئته، وخلق الحياة موجداً فيها سبل الخير والشر بمشيئته، وأعطى الإنسان كل إمكانات الفهم والوعي والاختيار، وطالبه بأن يسير في طريق الخير لكنه لم يرغمه على ذلك، بل ترك له مشيئة الاختيار، وهو في كل الأحوال يفعل ما يشاء دون أن يخرج عن مشيئة الله التي قضت أن من يسير في طريق الشر فإن مصيره إلى النار، وأن من يسير في طريق الخير فإن مصيره إلى الجنة.

حتى الآيات التي تَوَهَّمَ منها الجبرية أنها تلغي مشيئة الإنسان ليست كذلك لو تمعنا فيها النظر، مثل قوله تعالى {قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين} [الأنعام: ١٤٩] فإنها تؤكد السنن الإلهية التي تمثل مشيئة الله وليست نفياً لها كأنه يقول لو شاء الله لهدى الناس جميعاً سواء استحقوا الهداية أم لم يستحقوا، لكن غاية ما تعمد إليه مثل هذه الآية أنها تلفت الأنظار إلى أن الله مالك السنن وأنها لا تعمل وحدها وأن باستطاعته تغييرها لو أراد، لكن مشيئته الأولى قضت أن تسير الحياة على هذه السنن ومنها سنة الاختيار الممنوحة للإنسان.

ومثل هذه الآية قوله تعالى {ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد} [البقرة: ٢٥٣] فقد قضت مشيئته تعالى أن يخلق أسباباً لكل ظاهرة ومقدمات لكل نتيجة، وقد سلك هؤلاء أسباب الاقتتال فاقتتلوا، وقد فعل الله ما أراد، حيث ترك من أراد الاقتتال ليسلك طريقه حتى وقع فيه، وهذا تأكيد لوقوع مشيئة الإنسان في إطار السنن الاجتماعية والقوانين الكونية التي هي مشيئة الله الأولى.

ولأن هذه الآيات تؤكد هذا المعنى فقد عاب الله على المشركين والمنافقين الذين تحججوا بالقدر، قال تعالى {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا} [الأنعام: ١٤٨] {وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء} [النحل: ٣٥].

وقد كان سلف الأمة يستنفذون الأخذ بالأسباب وهي من مشيئة الله، فإن جهدهم هذا يجسد مشيئتهم ، والتزامهم بالقوانين وسنن الفاعلية يجسد مشيئة الله، وفي الأحوال كلها يدركون أن الكون وما فيه من نواميس وأسباب وإنسان وأشياء إنما هي ملك لله، وبالتالي فإن الكون يسير كله بمشيئة الله .

وبالطبع فإن هذا المعنى يختلف عن الفكر الجبري السلبي في التعامل مع الأقدار، وهو الفكر الذي ارتدى عباءة التسليم لله فأفسد الحياة، وكان أحد الأسباب الرئيسة في تخلف هذه الأمة على المدى البعيد ، ولا سيما أن الحكام شجعوا هذا الفكر لأنه يحميهم من مساءلة الناس على اعتبار أن الله إذا أراد تغييرهم فسيفعل !.

وبسبب هذا الفكر الجبري وكرد متطرف عليه ظهرت مجموعة أُطلق عليهم القدرية لأنهم في سبيل إثبات فاعلية الإنسان واختياره وصلوا إلى حافة إنكار القدر، مستخدمين بعض المصطلحات والألفاظ التي لا تليق بالله.

وإمعاناً من بعض العلماء في محاربة الفكر القدري وما استخدم أصحابه من مصطلحات، فقد كاد هؤلاء العلماء أن يقعوا في فخ الفكر الجبري .

ومن هؤلاء ابن حزم الأندلسي (ت/٤٥٦هـ) الذي مال إلى التعامل مع ظواهر النصوص، ولما كان المعتزلة من أكثر فرق المسلمين إعمالاً للعقل في النصوص إلى حد التكلف، فقد صار شديد العداوة لهم، ولما كان المعتزلة هم أشهر أنصار الفكر القدري الذي يرى بأن الإنسان "يخلق" أفعاله- بهذا اللفظ- مع ما تبع هذا الفكر من تداعيات، فقد ذهب ابن حزم إلى أن الله يخلق أفعال العباد بعبارات قد يتوهم منها بعض الناس أنه من أنصار الفكر الجبري(٥) .

ومن يمعن النظر في كتب ابن حزم سيلاحظ بوضوح أنه مع اختيار الإنسان ومشيئته، ومسؤوليته العادلة عن هذا الاختيار، فقد انتقد بصرامته المعهودة الفكر الجبري، وأكد بعودته للقرآن أنه يثبت للإنسان عملاً واختياراً، ومما قاله في هذا السياق: "وإجماع الأمة كلها على لا حول ولا قوة إلا بالله مبطل قول المجبرة وموجب أن لنا حولاً وقوة، ولكن لم يكن لنا ذلك إلا بالله تعالى، ولو كان ما ذهبت إليه الجهمية(٦) لكان القول "لا حول ولا قوة إلا بالله" لا معنى له، وكذلك قوله تعالى {لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين}[التكوير: ٢٨، ٢٩] فنصّ تعالى على أن لنا مشيئة إلا أنها لا تكون منا إلا أن يشاء الله تعالى كونها" (٧) .

وانتقد ابن حزم من يظن أن في القضاء والقدر معنى الإكراه والإجبار، وأكد أن القضاء في لغة

العرب- التي هي لغة القرآن- إنما هو الحكم، والقاضي هو الحاكم، والقضاء يكون أيضاً بمعنى الأمر، كما قال تعالى {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء: ٢٣] وبمعنى أخبر كما قال تعالى {وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين} [الحجر: ٦٦] بمعنى أخبرنا أن دابرهم مقطوع بالصباح. أما القدر فمعناه الترتيب والحد الذي ينتهي إليه الشيء، تقول: قدرتُ البناء تقديراً: رتبتُه وحددتُه، قال تعالى {وقدر فيها أقواتها} [فصلت: ١٠] بمعنى رتب أقواتها وحددها. ووصل إلى أن "معنى قضى وقدر حكم ورتب، ومعنى القضاء والقدر: حكم الله تعالى في شيء بحمده أو ذمه، أو تكوينه أو ترتيبه على صفة كذا إلى وقت كذا"(٨).

وهكذا عرفنا أن مشيئة الله هي النواميس والقوانين والأسباب التي أودعها في الكون وفي هذه الحياة، إذ خلق أسباباً للشر وأخرى للخير، وأوجد قوانين للضعف وأخرى للقوة، وبالتالي فإن من يسير في طريق الخير والقوة والطاعة فهو في مشيئة الله ومن سار في طريق الشر والضعف والمعصية فهو في مشيئة الله، وفي ذات الوقت فإن صاحب الخير وصاحب الشر لم يفقدا مشيئتيهما واختياريهما، بل اختار كل واحد طريقه فأعانه الله عليه.

٢- الإرادة: صفة توجب للحي حالاً يقع منه الفعل على وجه دون وجه(٩). والإرادة أيضاً: السعي في طلب الشيء، وجُعلت اسماً لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يُفعل أو لا يُفعل ثم يُستعمل مرة في المبدأ وهو نزوع النفس إلى الشيء. وتارة في المنتهى وهو الحكم فيه بأنه ينبغي أن يُفعل أو لا يُفعل، فإذا استعمل في الله فإنه يراد به المنتهى دون المبدأ فإنه يتعالى عن معنى النزوع(١٠). والإرادة حلقة من حلقات الفاعلية النفسية بعد المشيئة، وَحَدَثَ حولها نفس الاختلاف، فهناك من نفى كل ما سوى إرادة الله، وهناك من أعطى الإنسان إرادة، ومنشأ الخلاف هو ذات السبب الأول وهو سوء فهم قراءة القرآن والعمد إلى قراءته بطريقة جزئية.

وبعودتي إلى القرآن الكريم وبعض معاجمه اللفظية، اتضح لي أن مشتقات الإرادة وردت في مائة وتسعة وثلاثين موضعاً، إذ نُسبت الإرادة إلى الله سبعة وأربعين مرة، ونسبت إلى الإنسان ثمانية وثمانين مرة، ونسبت في موضعين إلى الشيطان، و بنيت للمجهول مرتين(١١). وإليكها بما يأتي:

أ- إرادة الله: من الآيات التي تنسب الإرادة إلى الله، قوله تعالى {قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة} [الأحزاب: ١٧] لكن مشيئة الله الأولى قضت بإيجاد مقدمات للسوء وأخرى للرحمة، وبالتالي فإن من يسير في الدرب لابد أن يصل، سواء سار في درب السوء أو في درب الرحمة.

وقال تعالى {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض}[القصص: ٥] ، وذلك بمقدار التزامهم بمشيئة الله الأخرى التي هي السنن والقوانين التي تجلب لأصحابها القوة والتمكين ما ساروا عليها بجوارحهم وتعلقت قلوبهم بالله .

وفي ذات السياق، قال تعالى {ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً} [المائدة: ٤١] ، {أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم}[المائدة: ٤١] ، لماذا لم يرد الله أن يطهر قلوبهم؟ لأنهم لم يريدوا .

ب- إرادة الإنسان: إن الإرادة هي التي تبعث على العمل، العمل الذي يغير حياة الفرد ومن ثم حياة المجتمع من المعصية إلى الطاعة، من الضعف إلى القوة ، من الذل إلى العزة ، من الجهل إلى العلم ، من الفقر إلى الغنى ، من التخلف إلى التقدم ، من الشقاء إلى السعادة .

وهذا هو مضمون عشرات الآيات التي نسبت إلى الإنسان إرادة التغيير والتمكين في الدنيا وإرادة الفوز في الآخرة ، ومنها قوله تعالى :

- {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً} [الإسراء : ١٩].
- { ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين} [آل عمران : ١٤٥].
- {وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا} [الفرقان : ٦٢].
- {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين} [التوبة : ٤٦].

وهكذا فقد كره الله انبعاثهم عندما اطلع على عزائمهم الواهنة وقلوبهم السقيمة حتى أنهم لم يعدوا عدة الخروج للقتال التي هي برهان إرادتهم ، مما يؤكد ارتباط إرادة الله بإرادة الإنسان .

جـ- تكامل الإرادتين : من الواضح لمن تدبر القرآن اجتماع الإرادتين وتكاملهما ، فإرادة الإنسان مُقَدِّمة وإرادة الله نتيجة ، ولا حصول للنتائج بدون المقدمات ، مع أن الله يستطيع فعل ذلك ، {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} [النحل: ٤٠] ، لكن الله يسير الإنسان بإرادته الكونية المتمثلة بالسنن والقوانين المطردة ، وهو يكسرها أحياناً من أجل أن يلفت أنظار الإنسان إلى أنها ليست فاعلة بذاتها ، ولكن بتسيير الله وإرادته وقوته وحكمته .

ورغم وضوح تكامل آيات الإرادة ، إلا أن هناك آيات أخرى تجمع الإرادتين في ذات النص ، مثل قوله تعالى :

- {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من والٍ} [الرعد: ١١].

- {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم بعض ذنوبهم} [المائدة : ٤٩] فإن توليهم هو سبب عدم هداية الله لهم ، وهذا التولي بسبب الذنوب التي ارتكبوها بملء إرادتهم ، ومن ينسب الذنب إلى الله يكون قد سلك مسلك إبليس الذي طُرد من رحمة الله بسبب أنه نسب الذنب إلى الله ، حيث قال {رب بما أغويتني} {الحجر: ٣٩} فنسب الغواية إلى الله ، بينما تحمل آدم وزوجه المسؤولية ولم يحملا القدر {قالا ربنا ظلمنا أنفسنا} {الأعراف: ٢٣}.

وتحضر إرادة الله في دفع المؤمنين نحو أفضل الخيارات لهم ، وخاصة الخيار الذي قد تكون مرجحاته البادية أضعف وهو أفضل للمؤمنين على المدى البعيد ، كما حدث يوم بدر ، حيث اجتمعت الإرادتان فتحقق للمسلمين ما هو أفضل رغم أنه لم يكن في حسبانهم الأولوية الأولى ، قال تعالى {وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين} [الأنفال : ٧].

إن إرادة الإنسان إذا سارت وفق سنن الله فهي تستحق الموافقة من الإرادة الربانية ، كما قال القرآن {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} [الرعد: ١١] ، وكما قال الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وقد كان من تعزيز إرادة الفرد وفاعليته مجيء معجزة هذا الدين معجزة معنوية وليست مادية وهي القرآن ، يقول عمر عبيد حسنة : "أما معجزة الرسالة الإسلامية حوفهي معجزة مجردة ، بيانية ، برهانية ، تسير وفق السنن الجارية ، تتحقق من خلال عزمات البشر وإراداتهم ، وهذا يعني عدم إصابة الأمة بالعجز والعطالة ، وانطفاء الفاعلية ، وإلغاء التكليف ، والاكتفاء بالإيمان السلبي ، وانتظار الخوارق ، وإلغاء إرادة الفرد وقدرته" (١٢).

وبداية التغيير وتحقيق الإقلاع الحضاري يكمنان في القرآن الكريم ، لكن لا بد من توافر إرادة التدبر فهو الطريق إلى النهوض (١٣) ، قال تعالى {ولقد يسرنا القرآن للذكرفهل من مدكر} [القمر: ١٧] ، وقد تكررت هذه الآية بضع مرات في سورة القمر للحث على التدبر بالقرآن ، لأن التدبر فيه يأتي بتجنب الضلال ويرشد إلى مسالك الاهتداء (١٤).

ولأهمية توافر الإرادة الذاتية في فهم القرآن وتدبره ، فقد أبرزها العلماء في حديثهم عن التدبر ،

وجعلها بعضهم من أهم شروط الاستفادة من القرآن (١٥) .

٣ـ الأمر : في لغة العرب والقرآن : الشأن ، وجمعه أمور ، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها (١٦) . ولأن الأمر هو الشأن فإن الحكم أمرٌ ، كما قال تعالى{ وأمرهم شورى بينهم} [الشورى :٣٨] ويقال للحاكم أمير أي صاحب الأمر. وقال تعالى { وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} [النساء : ٥٩] وهم أصحاب الشأن ، ولا شك أن أصحاب الشأن في المجتمع الإسلامي هم الأمراء والعلماء . وقد طُرح دوماً سؤال يقول : هل الأمر لله أم للإنسان ؟ حيث اختلف المسلمون في الإجابة عليه كما حدث تماماً في المشيئة والإرادة . إذ توجد آيات تنسب الأمر كله لله ، وآيات تنسب الأمر للإنسان .

أ ـ أمر الله : من الآيات التي توضح أن الأمر كله لله ، قوله تعالى { ليس لك من الأمر شيء} [آل عمران :١٢٨] ، {وإليه يرجع الأمر كله} [هود : ١٢٣] ، {يقولون لو كان لنا من الأمر شيء} [آل عمران : ١٥٤] .

ولو تمعنا في هذه الآيات لتوصلنا إلى أنها لا تنفي فاعلية الإنسان وأمره ، ففي الآية الأولى روى أحمد ومسلم عن أنس "أن النبي(ص) كُسرت رباعيته يوم أحد ، وشج وجهه حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ، فأنزل الله {ليس لك من الأمر شيء] [١٧] .

ورويت في سبب نزول هذه الآية قصص أخرى (١٨) ومهما تكن هذه الأسباب ، فلا يوجد بينها ما يشير إلى نفي فاعلية الإنسان ، بل فيها إثبات ضمني ، لأنها دعوة للرسول ﷺ لكي يلتزم بأمر الله الوارد في القرآن والصبر على الأذى .

أما الآية الثانية فهي تنص على أن الله مرجع كل أمر ذي شأن في هذا الوجود ، وهذا حق دون أن يصبح الإنسان بلا أمر ، أما الآية الثالثة فقد نزلت في سياق الذم للمنافقين .

أخرج ابن راهويه عن الزبير قال : لقد رأيتني يوم أحد حين اشتد علينا الخوف ، وأرسل علينا النوم ، فما منا أحد إلا ذقنه في صدره ، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير "لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا" فحفظتها ، فأنزل الله في ذلك : {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً} إلى قوله تعالى {والله عليم بذات الصدور} [١٩] .

ب ـ أمر الإنسان :

لقد أثبت القرآن للإنسان أمراً ، فقال عن المؤمنين وهم يدعونه {وإسرافنا في أمرنا} [آل عمران :

١٤٧] ، وأثبت للمسرفين أمراً {ولا تطيعوا أمر المسرفين} [الشعراء: ١٥١] وللمؤمنين أمراً {وأمرهم شورى بينهم} [الشورى: ٣٨] ، وجعل لكل البشر في كل زمان ومكان أمراً ، سواء كانوا صالحين أو طالحين ، قال تعالى {وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد} [هود : ٥٩] ، {فأجمعوا أمركم وشركاءكم} [يونس: ٧١] ، {فذاقوا وبال أمرهم} [التغابن : ٥] .

ولأهمية الأمر العام للمسلمين فقد أوجب الإسلام على الحاكم مشاورة أهل الحل والعقد (٢٠).

ج - تكامل الأمرين : من الواضح أن القرآن يجعل للإنسان أمراً نسبياً يكتسب به الثواب والعقاب ، وهو لا يخرج عن الأمر الإلهي العام صاحب الحكم المطلق الذي قضت مشيئته أن تجعل للإنسان أمراً بقدر التحامه بمنهج السنن الكوني والاجتماعي .

٤- الإيمان : الإيمان من القيم التي نسبت إلى الله في مواضع ،وأضيفت إلى الإنسان في مواضع أخرى. وقد ورد لفظ الإيمان ومشتقاته ٧٨٤مرة في القرآن ، ونُسب في أكثر هذه المواضع إلى الله ، ونُسب إلى الإنسان في المواضع الأخرى ، مثل قوله تعالى {إيمانكم} التي وردت بهذا اللفظ تسع مرات في القرآن .

أ - الإيمان المنسوب إلى الله : وردت آيات عدة تنسب الإيمان إلى الله وتجعله منحة منه ، ومنها قوله تعالى لنبيه(ص) { ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} [الشورى: ٥٢] فهو جَعْلٌ من الله لمن يشاء من عباده وهم من يستحقون الإيمان ممن تعرضوا لنفحاته وأخذوا بسلوك السُبُل الموصلة إليه ، وبدون ذلك لا يمكن لأي إنسان أن يؤمن ، ولذلك قال تعالى {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله} [يونس: ١٠٠] .

ويتم ذلك بأن يحبب الله الإيمان لمن يحمل خيراً ويطرق أبواب الإيمان { ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} [الحجرات : ٧] وكان قد زينه في قلوب الخلق جميعاً عندما خلقهم على فطرة الإسلام ، وألهمهم التقوى بجانب الفجور {فألهمها فجورها وتقواها} [الشمس: ٨] .

ولذلك اعتبر القرآن بأن الإيمان أتية من الله {قال الذين أُوتوا العلم والإيمان} [الروم: ٥٦] ونهى عن المن بالإسلام {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان} [الحجرات: ١٧] .

إذن لا بد من جهد للإنسان في تحصيل الإيمان ، ولو كان جهداً نفسياً وعقلياً .

ب - إيمان الإنسان : نسبت مئات الآيات الإيمان إلى الإنسان بصيغ متعددة وفي مناسبات مختلفة، ومن ذلك قوله تعالى {ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر} [البقرة: ٢٥٣] ، {ولو آمن

أهل الكتاب لكان خيراً لهم} [آل عمران: ١١٠] ، {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم} [النساء: ١٤٧] ، {لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا} [البقرة : ١٠٩].

إذن ، الإنسان يملك إيمانه بنفسه بحسب تجسيده لمنهج القرآن في تحصيل الإيمان وتنميته ، وهو يملك الاختيار في أن يؤمن أو يكفر {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} {الكهف : ٢٩].

جـ - تكامل الإيمانين : إذن الإسلام يعطي بني الإنسان فرصة الاختيار لكي يؤمنوا إذا أرادوا ، ومن المستحيل أن يتحقق الإيمان كثمرة لعوامل خارجية دون وجود القناعة الداخلية ، ولذلك قال الله تعالى لرسوله محمد (ص){ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} [يونس: ٩٩].

وأكد الله هذا المعنى في قوله تعالى {إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم} [آل عمران: ١٧٧].

ويمكن القول إن الإيمان في أصله كدين هو ملك الله ، لكنه كتدين متاح للناس جميعاً وبالتالي يتكامل المفهومان ، فالدين تنزيل الله والتدين تطبيق الإنسان .

وفي ذات السياق فإن الإسلام الذي هو دين الله في الأرض، نسبه الله إلى البشر في بعض المواضع، مثل قوله تعالى {قل لا تمنوا علي إسلامكم} [الحجرات: ١٧] ، {ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم} [التوبة: ٧٤].

وقع مثل هذا الأمر في الصلاة، وهي عبادة لازمة بين العبد وربه إذ أنها من أخص حقوقه تعالى ، ومع ذلك أضيفت إلى الإنسان في أحد عشر موضعاً من القرآن ، مفرداً وجمعاً، بضمير الحاضر وضمير الغائب، مثل قوله تعالى {الذين هم على صلاتهم دائمون} [المعارج: ٢٣]، {ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها} [الإسراء: ١١٠].

وهذا يعطي مزيداً من الأدلة والبراهين على امتلاك الإنسان للقدرة والاستطاعة والاختيار التي تمكنه من تحمل المسؤولية وصناعة الحياة، بعيداً عن السلبية ومنهج التبرير والبحث عن المعاذير.

٥- التزكية: التزكية مأخوذة من زكا: نما وزاد. وزكا فلان: صلح وتنعم وكان في خصب فهو زكي، وجمعه أزكياء. والزكاة: البركة، والنماء، والطهارة، والصلاح، وصفوة الشيء. والزكية: الأرض الطيبة الخصبة. والزكاء: ما أخرجه الله من الثمر(٢١).

وقد وردت مشتقات التزكية سبعة وعشرين مرة في القرآن (غير مصطلح الزكاة) ، ونُسبت في

أكثر هذه المواضع إلى الإنسان، سواء كان المقصود بها التزكية الإيجابية بمعنى التربية والتطهير والمراقبة والمحاسبة، أو التزكية السلبية المقصود بها الإعجاب بالذات.

أ- التزكية المنسوبة إلى الله: نُسبت التزكية إلى الله في الدنيا مرتين، الأولى في قوله تعالى {بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً}[النساء: ٤٩]، والأخرى {ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم}[النور: ٢٩].

وتزكية الله هي نتيجة لتزكية الإنسان، ولا تتحقق النتيجة بدون تحقق المقدمة، ومما يؤكد أن هذه التزكية قائمة على معطيات ذات صلة بالإنسان نهاية الآية الأولى، حيث قال تعالى {ولا يُظلمون فتيلاً}، كأن الله يقول بأنه لا يوجد من يأخذ بأسباب التزكية ويستحقها إلا وزكاه الله !.

ب- تزكية الإنسان: الأنبياء هم من الناس، وقد عُلم من خلال القرآن أن من مهماتهم تزكية الناس، فضلاً عن تزكية الناس لأنفسهم عبر التربية الذاتية والمراقبة والمجاهدة للنفس الأمارة بالسوء بصورة مستمرة. قال تعالى {قد أفلح من تزكى}[الأعلى: ١٤]، وقال {قد أفلح من زكاها}[الشمس: ٩]، وقال: {خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى} [طه: ٧٦].

ج- تكامل التزكيتين: الإنسان يمتلك أن يأخذ بأسباب التطهر وتشذيب النفس وتأديبها، وهي منح متاحة من الله لكل عباده، وبالتالي فإن من يزكيه ربه هو من يزكي نفسه، {ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه}[فاطر: ١٨].

وبمنح الله لأسباب التزكي تنسب التزكية إليه، لتكون فضلاً منه ورحمة، قال تعالى {ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً}[النور: ٢١].

والتزكية كواجب على الفرد نحو ذاته تتصف بالشمول لأبعاد الشخصية المختلفة، إذ يجب أن يزكي نفسه روحاً وعقلاً وجسماً (٢٢).

أما بالنسبة للتزكية السلبية فهي إعجاب المرء بذاته وإظهار الصلاح أمام الناس مع الأمن من مكر الله وادعاء دخول الجنة. وهي تزكية منهي عنها شرعاً {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى}[النجم: ٣٢].

وقد حذر العلماء من الإدلال بالطاعة، والعجب بالالتزام والقرب من الله، وذهبوا إلى أن المعصية مع الخوف خير من الطاعة مع الأمن من مكر الله (٢٣).

وروى ابن القيم أن رجلاً قال لأحد الزهاد: إني أُكثِر البكاء. فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك" (٢٤). ذلك لأن المدل بعبادته يشعر بالإعجاب

بنفسه، فينفخه الشيطان، وغالباً ما يدفعه ذلك إلى الاستطالة على خلق الله .

٦- الثبـات: الثبات يأتي بمعنى عدم الزوال (٢٥) . ونعني به امتلاك القوة القلبية للصمود أمام التحديات الذاتية "رغبات النفس الأمّارة" والتحديات الموضوعية (الخارجية) .

وردت مشتقاته في ثمانية عشر موضعاً من القرآن، ومع أن معظمها نُسب إلى الله إلا أن فيها نصيباً للفرد، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

أ- الثبات المضاف إلى الله: وردت آيات عدة تتحدث عن تثبيت الله لأنبيائه وأوليائه الصالحين في أوقات حرجة استنفذوا فيها طاقاتهم البشرية المحدودة، فتدخل الله بالتثبيت لهم . ومن هذه الآيات: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً}[الإسراء: ٧٤] وهي خطاب للنبيﷺ الذي ثبته الله أمام مشركي مكة .

وعن نزول القرآن متفرقاً خلال ما يزيد عن عقدين من الزمان، قال تعالى {كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً}[الفرقان: ٣٢] ، وقال{يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت}[إبراهيم: ٢٧] ، فهل يعني ذلك أن الإنسان ليس له دخل أو دور في هذا التثبيت؟!

ب- ثبات الإنسان: طالب الله عموم المؤمنين بالثبات أمام العدو {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا}[الأنفال: ٤٥] أي يجب عليهم أن يأخذوا بكل أسباب الثبات المشروعة، وأن لا يقعوا فريسة للخوف والفزع والفرار أمام زحف الأعداء .

ولو تدبرنا قليلاً في الآيات السابقة التي تنسب التثبيت إلى الله، فسنجد أن فيها إشارات إلى دور للإنسان في قبول أو رفض هذا التثبيت . فعندما يقول الله {يثبت الله الذين آمنوا} ، فإن الوصول إلى درجة الإيمان يعني ضمن ما يعنيه أن هذا المؤمن قد استنفذ "جهده" في فهم سنن الله وأعمل "جهاده" في استثمارها لعمارة الأرض ومدافعة الظلمة والمستبدين، وبالتالي فإنه استحق التثبيت من الله . ووضح الله أنه أنزل القرآن مفرقاً لحِكَمٍ متعددة، منها تثبيت الرسول(ص) ومن معه وأكد هذا المعنى الواضح بقوله {ورتلناه ترتيلاً} .

والترتيل في لغة العرب يأتي بمعاني متعددة، منها الترسل في القراءة ، والتبيين بغير بغي ، وعدم التعجل، بل الميل إلى التأني فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات .

وقال مجاهد: الترتيل: الترسل . وقال أبو إسحاق: والتبيين لا يتم بأن يعْجَلَ في القراءة وإنما يتم التبيين بأن يبين جميع الحروف ويوفيها حقها من الإشباع(٢٦) .

لقد نزل القرآن ليثبت المؤمنين {قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى

وبشرى للمسلمين} [النحل: ١٠٢]. والتثبيت لا يحدث مع القراءة العجلى غير المتدبرة، ولذلك قال الله لرسوله(ص): {لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه} [القيامة: ١٦- ١٨] وذهب المفسرون إلى أن علة هذا النهي تكمن في الحرص على التأني في استخراج كنوز القرآن(٢٧). وهذا المعنى ذاته هو ما أشار إليه ترجمان القرآن عبدالله بن عباس[٢٨].

وأكد الله هذا المعنى لنبيه (ص) في قوله تعالى {ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً} [طه: ١١٤]. كأن التأني في قراءة القرآن وإعمال العقل فيه تدبراً هو الطريق لتحصيل العلم والاستزادة منه.

ج- تكامل الثباتين: إن الثبات كله هو منحة ربانية، لكنها ليست منحة مجانية، بل تريد مقابلها أداء ضريبة كبيرة، قوامها الالتزام بمنهج الله السنني وكمال اللجوء إليه، وهذا ما أشارت إليه آيات أخرى، بل ذكرت بعض الآيات صراحة أن التثبيت الرباني لا يأتي إلا عند اكتمال الاهتداء الإنساني، قال تعالى:

- {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} [محمد: ٧].
- {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً} [النساء: ٦٦].
- {ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها} [النحل: ٩٤].

إذن يرتبط تثبيت الله للإنسان وجوداً وعدماً بذات المنهج السنني الذي يمثل مشيئة الله الأولى، بمعنى أنه لا تثبيت من الله إلا لمن أراد هذا التثبيت، بتوفير شروطه ودفع ضريبته.

ولمدافعة عوامل التخلف لإحداث التغيير المنشود في حياة المجتمعات الإسلامية، فإنه لا يكفي الاقتصار على دائرة الأقدار النفسية، بل لابد من إنضاج وترشيد وتوجيه هذه الطاقات النفسية عبر بوصلة (العلم)، ولذلك سننتقل إلى دائرة الأقدار العلمية.

المطلب الثاني

الأقـدار العلميـة

إذا كان كل ما يتعلق بالقلب من قيم يدخل ضمن الأقدار النفسية، فإن كل ما يتعلق بالعقل وأدواته ومدخلاته يندرج ضمن الأقدار العقلية.

وبسبب الصياغة القرآنية المعجزة أمر الله بالتدبر، لكن إهمال هذا الأمر أوقع قراء القرآن في الكثير من الأخطاء، وخاصة أصحاب القراءات الجزئية الذين أساؤوا فهم القدر من هذه الزاوية، كامتداد لنفس سوء الفهم في الدائرة النفسية، وهذه أهم المصطلحات في هذه الدائرة:

١- الفقه: الفقه في اللغة يأتي بمعنى الفهم . وفي الاصطلاح يأتي الفقه في أصله العام بمعنى: التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد(٢٩) . والفقيه هو من يفهم مراد الشارع الحكيم، ويملك القدرة على تنزيله على الوقائع والأحداث، بحيث يجد لكل مشكلة في الحياة حلاً، ولكل سؤال إجابة، ولكل مأزق مخرجاً، ولكل داء دواء . والفقه بهذا المعنى هو المقصود بحديث المصطفى(ص) : "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (٣٠) .

وعندما نقرأ في الآيات التي تحدثت عن العلم والفقه والقراءة ومشتقاتها اللفظية والمعنوية، وهي بالمئات، سنجد هذه العمليات تنسب إلى الله أحياناً وإلى الإنسان أحياناً أخرى .

أ- الفقه المضاف إلى الله: في الفقه قال تعالى {إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً}[الكهف: ٥٧] ، {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً}[الأنعام: ٢٥]، {فطُبع على قلوبهم فهم لا يسمعون}[الأعراف: ١٠٠] ومثل هذه الآيات قوله تعالى {أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم}[محمد: ٢٣] .

وهكذا مال أناس إلى اعتبار أن الله أجبر من لم يتفقه ، بأن أغلق عليه منافذ الفهم والتفقه .

ومثل هذا المعنى ورد في العلم عموماً عندما يُقرأ النص مقطوعاً من سياقه ، {علّم الإنسان ما لم يعلم}[العلق: ٥] ، {الرحمن علّم القرآن}[الرحمن: ١ ، ٢] ، وفي القراءة قال تعالى {سنقرئك فلا تنسى}[الأعلى: ٦] فهل الإنسان إذن مجرد آنية سالبة لا دخل لها في تحصيل العلم والفقه والوعي وممارسة القراءة؟

ب- فقه الإنسان: ونبدأ من حيث انتهينا في الفقرة السابقة، حيث نسب الله القراءة إلى الإنسان، عندما أمره بفعلها في أول آية وأول كلمة في القرآن {اقرأ باسم ربك الذي خلق} [العلق: ١] ، ونسب العلم إلى الإنسان في عشرات المواضع في القرآن، مثل قوله تعالى {كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون}[فصلت: ٣] .

ونسب القرآن إلى الإنسان إرادة الوعي: عقلاً وسمعاً وبصراً، أو إرادة الإعراض والغفلة والجهل: جنوناً وصمماً وعمى، وذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في وصف الرجال الفرقانيين "عباد الرحمن": "والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً}[الفرقان: ٧٣] .

وفي الطرف الآخر وصف المنافقين بأنهم {صم بكم عمي فهم لا يرجعون} [البقرة: ١٨] ، وقال عن صنف من الكفار {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧] ، وقال عن كل من عطل جهاز الوعي في شخصيته الآدمية {ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس

لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل} [الأعراف: ١٧٩].

قال ابن جرير: "هؤلاء الذين ذرأهم لجهنم هم كالأنعام، وهي البهائم التي لا تفقه ما يُقال لها، ولا تفهم ما أبصرته، لما يصلُح ولما لا يصلُح، ولا تعقل بقلوبها الخير من الشر، فتميز بينهما، فشبههم الله بها، إذ كانوا لا يتذكرون ما يرون بأبصارهم من حججه، ولا يتفكرون فيما يسمعون من آي كتابه" (٣١). ولأن القرآن هو المصدر الأساسي للمعرفة، فقد اعتبره الله "بصائر" تنير الطريق لبني الإنسان، وهو يتحمل مسؤولية نفسه إذا أعمى بصره وأغمض عينيه وأقفل بصيرته، قال تعالى {قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ} [الأنعام: ١٠٤] (٣٢).

لقد أنزل الله هذا القرآن، ويسره للناس، لكن علمه وهدايته وإعجازه تظل دوماً رهينة تدبره، قال تعالى {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} [القمر: ١٧] (٣٣).

ج- تكامل الفقهين: إن الذين أصابهم الله بالصمم في الأسماع والعمى على الأبصار، والطبع على القلوب، إنما كان ذلك نتيجة عوامل موضوعية تعود إلى الإنسان ذاته، ولذلك نجد آيات الطبع على القلوب تذكر أسباباً عدة اقترفها الإنسان (٣٤).

ومن ذلك: الكفر {بل طبع الله عليها بكفرهم} [النساء: ١٥٥]، والكفر هو ذاته عدم الإيمان {والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى} [فصلت: ٤٤]، وعدم إعمال العقل من هذه الأسباب {أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون} [يونس: ٤٢].

ومن هذه العوامل التكبر، قال تعالى {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق} [الأعراف: ١٤٦] "اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم معناه: سأنزع عنهم فهم الكتاب. وقال آخرون في ذلك معناه: سأصرفهم عن الاعتبار بالحجج... وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فَهُم عن فَهم جميع آياته والاعتبار والادكار بها مصروفون، لأنهم لو وُفِّقوا لفهم بعض ذلك فهُدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم" (٣٥).

وفي تفسير {ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين} يضيف شيخ المفسرين ابن جرير: "صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها فيعتبروا بها ويذّكروا فينيبوا، عقوبة منّا لهم على تكذيبهم بآياتنا... وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة على حقيقة ما أمرناهم به ونهيناهم عنه "غافلين"

لا يتفكرون فيها، لاهين عنها، لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذ قول ربنا فعَطِبوا" (٣٦) .

ولما كانت القناديل لا تنفع المغمض عينيه شيئاً، فقد وصف الله القرآن بأنه "بصائر" كما سبق، لكنه دعا إلى فتح الأبصار والبصائر عندما دعا في الآية التالية للاستماع والإنصات عند قراءته، قال تعالى{هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون} [الأعراف: ٢٠٣، ٢٠٤].

فالاستماع إذن محطة هامة جداً في التحصيل العلمي وصناعة الفقه، ولذلك أفردنا السمع بالفقرة التالية .

٢- السمع: السمع لغة: الأذن، وهي المسمعة، والسَّمع ما وقر فيها من شيء يسمعه . والسماع: ما سمَّعتَ به فشاع وتُكُلِّمَ به . وكل ما التذته الأذن من صوت حسن: سماع. وسمع له: أطاعه[٣٧].

أ- السماع المضاف إلى الله: وردت آيات عدة في القرآن تجعل السماع منحة إلهية لدرجة قد يتوهم البعض منها أن الإنسان مجبر على السماع أو الصمم، ومن هذه الآيات قوله تعالى {ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون} [الأعراف: ١٠٠] ، {ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه} [الأنعام: ٢٥] ، {إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور} [فاطر: ٢٢].

ولو أعملنا منهج التدبر في هذه الآيات لوجدنا السببية واضحة، خاصة لو قرأناها مع الآيات التي تصف الإنسان بأنه يسمع وتنسب السماع إليه. فالآية الأخيرة مثلاً يوحي مطلعها بالمعنى الجبري {إن الله يُسْمِع من يشاء} لكن الشق الآخر من هذه الآية يشير إلى السبب {وما أنت بمسمع من في القبور} أي أن الذين يعيشون في قبور التقليد للآباء والقطيع الجمعي، أو في قبور الهوى والكبر لا يمكن أن يسمعوا بتاتاً ، فهم بذلك أموات، وهم في قبور محكمة الإغلاق .

إذن الإنسان يستطيع أن يسمع إذا أراد أن يسمع، لأن الله لا يمنع عن السماع من أراده وسعى إليه، وخاصة أنه قد جهزه بأدوات الاستماع الحي (الأذن) والاستماع المعنوي (العقل) .

ب- سماع الإنسان: أكثر آيات السماع تُنسب إلى الإنسان، مثل قوله تعالى {إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون} [يونس: ٦٧] ، وقد يكون السماع إيجابياً {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به} [الجن: ١٣] ، {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول} [المائدة: ٨٣] ، {أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون} [الأنفال: ٢٠] .

وقد يكون هذا السماع سلبياً، بمعنى أن الإنسان يمتلك القدرة على السماع لكنه لا يفعل بل يعرض، مثل قوله تعالى {يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها} [الجاثية: ٨]،

{وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها} [لقمان: ٧] ، {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا} [الأعراف: ١٩٨].

ج- تكامل السماعين: من الواضح تماماً أن الله قادر على إسماع كل البشر، لكن حكمته التي خلقت الحياة للابتلاء طلبت من الإنسان أن يقوم بدور في السماع، وإلا فلن يسمع شيئاً حتى يتميز الطائع من العاصي، ولذلك ربط الله عدم السماع بعوامل عدة، كما جاء في عدد من آيات القرآن، مثل قوله تعالى {ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون} [يونس: ٤٢] ، {إنك لا تُسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون} [النمل: ٨٠، ٨١] ، {أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين} [الزخرف: ٤٠].

وفي قوله تعالى {ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم} [الأنفال: ٢٣] قال ابن تيمية: "أي لأفهمهم ما سمعوه. ثم قال: ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها لتولوا وهم معرضون، فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا، ولو فهموا لم يعملوا، فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال {أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} [الفرقان: ٤٤] وقال {ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} [الأعراف: ١٧٩] (٣٨).

وقال تعالى { إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} [ق: ٣٧] بمعنى "وهو حاضر القلب ، ليس بغائبه ، ووصف الله الكفار بأنهم صم بكم عمي لا يسمعون ولا يعقلون ، وأن في آذانهم وقراً ، وأنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم" (٣٩).

ومن المعلوم أن من أصيب بالصمم أو العمى أو الختم على القلب فقد داهمته أكبر المصائب ، وقد جعل الله قانوناً يحكم هذا الأمر يحمِّل الإنسان المسؤولية ، قال تعالى {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} [الشورى: ٣٠].

ولا شك أن بداية الضلال عن طريق الهدى هو الإعراض عن سماعه ،ولذلك كان الهدى أو الضلال من صميم دائرة الأقدار العلمية.

٣- الهداية : الهداية في لغة العرب تأتي بمعاني عدة ، منها الدلالة والإرشاد ، وتوضيح معالم الطريق . ويأتي الهدى بمعاني : النهار ، الطريق والرشاد ، الدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب

، الطاعة [40]. ونستطيع أن نفهم من الهداية بهذه المعاني أنها تتضمن الأخذ بالأسباب المادية ، ولذلك قال تعالى على لسان موسى عليه السلام {كلا إن معي ربي سيهدين} [الشعراء: ٦٢] ، رداً على أصحابه الذين رأوا جيش فرعون خلفهم يكاد أن يدركهم {قال أصحاب موسى إنا لمدركون} [الشعراء: ٦١].

والهداية عكسها الضلالة ، وكلاهما ورد في القرآن منسوباً إلى الله ومنسوباً إلى الإنسان .

أ ـ هداية الله : وردت آيات كثيرة تنسب الهداية إلى الله ، ومنها قوله تعالى للنبي ﷺ : {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} وقوله تعالى لعموم المؤمنين {أتريدون أن تهدوا من أضل الله} [النساء: ٨٨] ، {فمن يهدي من أضل الله} [الروم: ٢٩].

ولكن، هل الله يضل من يريد الهداية ، أو يهدي من أراد الضلال وسعى في طريقه وتعرض لأسبابه ؟ وهل يلغي الله إرادة الإنسان إذا أراد الاهتداء أو الضلال؟

ب ـ هداية الإنسان : لقد جعل القرآن الهداية والضلالة ذاتيتين ، بمعنى أنهما نابعتان من داخل الإنسان ، ولذلك فهو يحمل شرف الاهتداء أو يتحمل وزر الضلال ، قال تعالى {فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها} [يونس: ١٠٨] ، {إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها} [الزمر: ٤١].

وبهذا فإن الكافرين يضلون بملء إرادتهم {إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً} [النساء: ١٦٧] ، {قد ضلوا وما كانوا مهتدين} [الأنعام: ١٤٠].

ومن رفض قبول الهداية وتعرض لأسباب الغواية سيصبح ريشة في مهب رياح الضلال ، وقد تأتي هذه الريح من شخص عادي كالسامري {وأضلهم السامري} [طه: ٨٥] ، وقد تأتي من زعيم سياسي كفرعون {وأضل فرعون قومه وما هدى} [طه: ٧٩] ، وخلف هؤلاء جميعاً يقف الشيطان {ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً} [النساء: ٦٠].

جـ ـ تكامل الهدايتين : ويتبين من قراءة آيات الهداية أنها نوعان : هداية الدلالة والإرشاد وهي مكفولة لكل الناس ، ويمكن أن يقوم بها كل الناس ، كما قال الله لرسوله محمد(ص) {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} [الشورى: ٥٢].

والهداية الأخرى : هداية الإعانة والتوفيق ، وهي لا تكون إلا من الله ، كما قال الله لرسوله محمد(ص) : { إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} [القصص: ٥٦] لكن مشيئته تعالى كما أسلفنا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمشيئة الإنسان ، بمعنى أن الإنسان الذي يطرق أبواب

الهداية، فإن الله يفتحها له، ويعينه على السير في طريقها.

وقد أطلق الله على القرآن "هدى"، قال تعالى {هُدى للناس وبينات من الهدى والفرقان} [البقرة: ١٨٥] وقد حصر هداية القرآن في آية أخرى في المتقين، {هدى للمتقين} [البقرة: ٢]، إن هدى القرآن متاح للناس جميعاً، لكن هذه الهداية ليست آلية بل تقوم على جهد الإنسان، فالذي يخاف من الله يندفع لقراءة القرآن بتدبر وخشوع، فيصل إلى شاطئ الهداية، فهو "هدى للمتقين"، لأن التقوى هي أن يجدك الله حيث أمرك ولا يجدك حيث نهاك، والوصول إلى هذه الدرجة من الالتزام يحتاج إلى معرفة عميقة، وهذا لا يحصل إلا عبر التدبر (٤١). إن ذلك يؤكد أن للإنسان جهداً في تحصيل الهداية، ومن ثم تأتي هداية الله كنتيجة لاهتداء الإنسان.

وفي ذات السياق قال تعالى عن القرآن {يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام} [المائدة: ١٦] وفي هذه الآية "إشارة إلى أنه لا بد للاهتداء بكتاب الله من إيمان أولاً، يستتبع ذلك اهتداء بكتاب الله، يستتبع ذلك سير بالطرق الموصلة إلى رضوان الله، يستتبع ذلك هداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة" (٤٢). وقال تعالى عن القرآن {يضل به كثيراً ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين} [البقرة: ٢٦].

ومن المعلوم أن الفسوق هو الخروج، وبداية هذا الفسوق هو الخروج عن منهج السلف في التدبر، لأن القراءة العجلى لن تمكن صاحبها من استخراج الهداية القرآنية، وبالتالي سيبقى سائراً وراء بوصلة الهوى أو بوصلة التقليد الأعمى، مما سيوصله حتماً إلى وهدة الفسوق وحالكات الضلال.

٤ ـ الفتنة : أصل الفَتْنِ إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستُعمل في إدخال الإنسان النار قال {يوم هم على النار يفتنون} [الذاريات: ١٣] (٤٣) ثم صارت بمعنى الابتلاء غير أنها تنطبق على المنحة أكثر بينما الابتلاء يمكن أن يكون بالشدة أو بالرخاء.

أ ـ الفتنة المضافة إلى الله : أورد الله مصطلح الفتنة بمشتقاته منسوباً إليه في مواضع عديدة (٤٤)، منها قوله تعالى {ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا} [المائدة: ٤١]، {ولقد فتنا سليمان} [ص: ١٤]، {وقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم} [الدخان: ١٧]. فهل الفتنة هنا دفع من الله للناس نحو الانحراف والضلال؟

بالتأكيد أنها ليست كذلك، وإلا لما فتن الله سليمان، لكنه الابتلاء والمحن عندما يتعرض الناس لأسبابهما، فتكون تطهيراً للمؤمنين وإعلاء لدرجاتهم، بينما تقود غيرهم إلى الطرق الموحلة التي

آثروا السير فيها كفرعون وقومه .

ب ـ فتنة الإنسان : قال تعالى {ولكنكم فتنتم أنفسكم} [الحديد : ١٤] ، {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات} [البروج : ١٠] ، {على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم} [يونس : ٨٣] .

وحذر الله رسوله (ص) أن يتعرض لفتنة الكفار{واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} [المائدة : ٤٩] . ومهما تكن أقوال المفسرين في هذه الآيات واختلاف المعاني الدقيقة لكلمة الفتنة من آية إلى أخرى ، فإننا أردنا فقط أن نبين أن الإنسان يملك القدرة على الفتنة في إطار مشيئة الله الأولى القاضية بالابتلاء ، وتمكين الناس من امتلاك قدرات الفاعلية الإيجابية والسلبية ، لتفعيل هذه السنة وهي سنة الابتلاء والفتنة والتمحيص .

ج ـ تكامل الفتنتين : من الواضح أن لا تعارض بين انتساب الفتنة إلى الله وإلى الإنسان ، فقد وضع الله قوانين للفتنة من أدركها وقع فيها بشقيها السلبي والإيجابي . ولذلك استحق بنو إسرائيل الفتنة لما ارتكبوه من ذنوب ، وكان منها إتباعهم للسامري الذي أضلهم بصنع العجل من حلي بني إسرائيل المسروقة من المصريين ، قال تعالى لموسى {فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري} [طه : ٨٥] ، وقال {ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به} [طه : ٩٠] .

وهكذا يكون للإنسان دور في صنع أقداره العلمية المعرفية ، حيث يساهم بفاعلية في ارتياد نواميس العلم والفقه والهداية ، أو في التردي في مهاوي الجهل والصمم والعمى والضلال والفتن . وهي ذات القصة في دائرة الأقدار النفسية التي سبقت ، وفي دائرة الأقدار العملية التي هي عنوان المطلب الآتي .

المطلب الثالث

الأقـــدار العمليـــة

إن قوانين الله التي نظمت أقدار الإنسان النفسية والعلمية ، هي ذاتها التي تنظم أقدار الإنسان في الدائرة العملية ، وخوفاً من الإطالة وحتى لا يتكرر الكلام ، فسنعمد هنا إلى الاختصار ، ولاسيما أن مفردات هذه الدائرة كثيرة ومتشابهة .

١ـ الجعل : الجَعْلُ: " لفظ عام في الأفعال كلها ، وهو أعم من فَعَلَ وصَنَعَ وسائر أخواتها (٤٥) . وقد وردت جَعَلَ ومشتقاتها في عشرات المواضع متوزعة بين الله والإنسان .

أ- جَعْلُ الله : من الآيات الواردة في نسب الْجَعْلِ إلى الله {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين} [هود: ١١٨] ، {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً} [النحل : ٧٢] ،

{وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة} [الجاثية: ٢٣] ، {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض} [الأنعام: ١٦٥] ، {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه} [الحديد: ٧] ، {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} [البقرة: ١٤٣] .

هل يعني ذلك أن الإنسان لا يملك من الأمر شيئاً بمعنى لا يملك الاستطاعة لفعل شيء ؟!

ب - جَعْلُ الإنسان : نُسب الجعل إلى الإنسان في مواضع متعددة من القرآن ، مثل قوله تعالى حكاية عن يوسف {جعل السقاية في رحل أخيه} [يوسف: ٧٠] ، وقال على لسان الملك الصالح "ذو القرنين" : {فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً} [الكهف: ٩٥] ، وقال على لسان ملكة سبأ {إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة} [النمل: ٣٤] ، وقال عن أهل الكتاب {كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين} [الحجر: ٩٠، ٩١] ، وقال عن فرعون {إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً} [القصص: ٤] ، وقال عن المشركين {قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً} [يونس: ٥٩] .

ج- تكامل الجعلين: إذن، من المؤكد أن لا تعارض بين جعل الله الذي هو حديث عن ملك الله للكون والإنسان والحياة وإيجاده للنواميس والقوانين التي تعمل بها الحياة، بينما ينصرف جعل الإنسان إلى إثبات فاعليته واختياره وقدرته، سواء كان الجعل إيجابياً كحال ذي القرنين أو سلبياً كجعل فرعون .

وفي كل الأحوال يمتلك الإنسان في إطار قوانين الله الجعل الذي يمكنه من الإصلاح أو الإفساد .

٢- الإصلاح: وردت آيات الإصلاح في القرآن منسوبة إلى الله تارة وإلى الإنسان تارة أخرى.

أ- إصلاح الله: قال الله عن نبيه زكريا الذي كانت زوجته عقيمة {فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه} [الأنبياء: ٩٠] وقال على لسان الإنسان الصالح {وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين} [الأحقاف: ١٥] ، وقال عن المؤمنين من صحابة رسول الله ﷺ: {كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم} [محمد: ٢] .

فهل الإنسان خلوٌ من إمكانيات الإصلاح والإفساد؟

ب- إصلاح الإنسان: نسب الله الإصلاح إلى عباده فقال {فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه} [البقرة: ١٨٢] ، {فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه} [المائدة: ٣٩] ، {فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [الأعراف: ٣٥] ، {فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم} [الأنفال: ١] ، {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين

أخويكم}[الحجرات: ١٠].

ج- **تكامل الإصلاحين:** إن مالك أسباب الإصلاح هو الله الذي منح الإنسان إمكانات الإصلاح وطالبه باستثمارها وفق منهجه، كجزء من ابتلاء العبودية في دائرته العريضة، والله عندما يُصلِح أو لا يُصلِح بحسب حَمْلِ الإنسان لاستعدادات هذا أو ذاك، وهذا ما تثبته الآيات الآتية: {سيهديهم ويصلح بالهم}[محمد: ٥] وهو يتحدث عن الشهداء الذين ضحوا بأغلى ما يملكون من أجل مرضاته، وقال عن عاقبة التقوى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم} [الأحزاب: ٧١]. وفي المقابل أوضح القرآن أن الله لا يمكن أن يصلح أعمال المفسدين {إن الله لا يصلح عمل المفسدين}[يونس: ٨١].

٣- **الضحك:** إن الضحك وهو عمل يسير لم يخل من فعل لله وفعل للإنسان، فنسب الضحك إلى الإنسان في قوله تعالى {أفمن هذا تعجبون وتضحكون ولا تبكون}[النجم: ٥٩، ٦٠]، ونسب الضحك إليه تعالى {وأنه هو أضحك وأبكى}[النجم: ٤٣]، لأنه هو الذي خلق أسباب الضحك والبكاء، لكنه وجه الإنسان ليضحك في أوقات الضحك المشروعة، فقد كان الرسول(ص) وصحابته يضحكون ويمزحون، لكنه حذر من الضحك غير المشروع، مثل الضحك على عباد الله الصالحين، كما قال تعالى {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون}[المطففين: ٢٩].

٤- **الرزق:** وردت مفردات الرزق والمال والغنى كثيراً في القرآن، وبذات المنهج كانت تنسب إلى الله في مواضع وإلى الإنسان في أخرى.

أ- **رزق الله:** نسب الله الرزق إلى نفسه في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى {وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً}[المائدة: ٨٨]، {أنفقوا مما رزقناكم}[البقرة: ٢٥٤]، {ومما رزقناهم ينفقون} [البقرة: ٣]. ونسب المال إلى ذاته في مواضع أخرى، منها: {وآتوهم من مال الله الذي آتاكم}[النور: ٣٣]، {وأمددناكم بأموال وبنين}[الإسراء: ٦].

وأظهرت آيات أخرى أنه تعالى هو مَن أغنى الناس {وأنه هو أغنى وأقنى} [النجم: ٤٨]، {إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله}[النور: ٣٢]، فهل هذا يعني أن ينتظر الإنسان رزقه المقسوم له حتى يأتي إليه؟

ب- **رزق الإنسان:** لقد أضاف الله الرزق إلى الإنسان في آيات عدة، منها: "{وارزقوهم فيها واكسوهم} [النساء: ٥] {وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً}[النساء: ٨]، {ومن قُدر عليه رزقه}[الطلاق: ٧]. أما بالنسبة للأموال فقد

نسبها القرآن إلى الإنسان في عشرات المواضع، فقد وردت مثلاً "أموالكم" بهذا اللفظ في القرآن أربع عشرة مرة، و "أموالهم" إحدى وثلاثين مرة.

وتشير الضمائر المضافة إلى الأموال إلى أن الله أثبت ملكيتها المطلقة له، ثم أثبت لصاحبها حقاً فيها، كقوله {واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة} [الأنفال: ٢٨]، وأثبت للمجتمع حقاً فيها، ولذلك قال تعالى {ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً} [النساء: ٥]. أما في الغنى فقد نسب فعل الغنى إلى الإنسان في قوله تعالى {كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى} [العلق: ٦، ٧].

ج- تكامل الرزقين: إن الله مالك الأموال والأرزاق فهو الرزاق والغني، وكل ما في هذا الكون ملكه، لكن مشيئته الأولى التي أودعها في نواميس الكون وسنن الحياة قضت أن الرزق يرتبط بالتحصيل وبذل الجهود والسعي في الأرض، من أجل استعمارها، ولذلك قال {فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه} [الملك: ١٥].

وعندما يكسر الله عالم الأسباب بأن يمنع العامل ويمنح الكسول، فهي حالات نادرة جداً لا تنفي القوانين بل تؤكدها، إضافة إلى كونها تلفت الأنظار إلى مالك الأموال الحقيقي فلا يلتفتون إلى الأسباب بدون مالكها، ولذلك اعتبر من يتعاملون مع الأسباب دون اعتراف بملكية الله، اعتبرهم مجرمين كقارون الذي قال عن كل ذلك المال الذي أعطاه الله إياه {إنما أوتيته على علم عندي} [القصص: ٧٨] بينما قال سليمان عندما رأى السلطة والمال بين يديه {هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر} [النمل: ٤٠].

٥- الصناعة: الصناعة مأخوذة من الصنع وهو: إجادة الفعل، فكل صنع فعل، وليس كل فعل صنعاً، ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات، كما يُنسب إليها الفعل (٤٧).

ومثل كل المفردات السابقة أضيف فعل الصناعة إلى الله وإلى الإنسان. وقد وردت مشتقات "صنع" عشرين مرة في القرآن ارتبط أكثرها بالإنسان.

أ- صُنع الله: من الآيات التي تنسب فعل الصناعة إلى الله {صنع الله الذي أتقن كل شيء} [النمل: ٨٨]، وخاطب الله كليمه موسى فامتن عليه قائلاً: {واصطنعتك لنفسي} [طه: ٤١]، {وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني} [طه: ٣٩].

وإذا كان الله قد صنع هذا الكون بكل هذا الإتقان، وكذلك صنع الإنسان في أحسن تقويم، فهل كل أفعال العباد صناعة لله، وليس لأصحابها أي دور فيها؟!

ب- صناعة الإنسان: نسب الله الصنع إلى الإنسان في آيات عدة ، منها قوله تعالى لموسى عليه السلام {وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا}[طه : ٦٩] ، وقال لنوح عليه السلام {واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا}[هود : ٣٧] وتحدث الله عن صناعة نوح للسفينة فقال {ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه}[هود : ٣٨] .

وحذر الله مقيمي الشعائر التعبدية فقال {ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون} [العنكبوت : ٤٥] ، وحذر من الوقوع في مصير "الأخسرين أعمالاً" : {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}[الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] .

ج- تكامل الصناعتين: لقد صنع الله هذا الكون بكل من فيه وما فيه ، وأودع فيه سنناً للعمل والإبداع ، تقوم على إعمال العقل في قراءة آيات الكون واستخراج ما فيه من كنوز وثروات ، وتحويلها إلى آلات ومواد تسهل حياة الإنسان وتوفر له الرفاه ، وهذه هي صناعة الإنسان .

ولاجتماع هذين الأمرين بدون تضاد قال الله عن نبيه داود عليه السلام ، {وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم} [الأنبياء : ٨٠] وقد اشتهر داود بأنه كان حداداً قبل النبوة وبعدها ، حيث مارس هذه المهنة بجهوده البشرية حتى برع فيها ، ولا ينفي ذلك كون الله هو المعلم له ، لأنه هو الذي خلقه وهيأ فيه هذه الاستعدادات ، وهو الذي أمره بتفجير طاقته ومواهبه في هذا المجال وتنميتها . وهو في هذا العمل يعبد الله كما يفعل عند أداء الشعائر التعبدية ، ولا فصل بين عبودية الله في محراب الصلاة وعبوديته في محراب الحياة ، كما في الرؤية الإسلامية الصافية التي جعلت عمارة الدنيا طريقاً لعمارة الآخرة .

يقول الشيخ محمد الغزالي : "إن التدين الجاهل يحسب التخلف في الدنيا أمارة على التقدم في الآخرة ، وهذا فهم منكر ، فإن الدخول إلى الإيمان يكون من باب العلم الحاذق ، لا من باب القصور البليد ، وهذا ما شرحته الآيات في قصة داود ، وما نلفت إليه أنظار الأمم الغفيرة التي انتمت إلى الإسلام وعاشت تتسول الصناعات من خصومه ، فكانت عاراً على دينها {ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير} [سبأ : ١٠ ، ١١] وداود جمع في سيرته بين علمين متباعدين : التغني بآلاء الله وأمجاده بصوت رخيم كانت الطيور ترجع صداه وتشارك في مزاميره ، والمهارة في الصناعات العسكرية والمدنية التي تحول الحديد إلى سيوف ورماح ودروع وإلى أوان شتى من جفان وقدور!! إن الفقه في الدنيا جزء من العقل الذي يفقه الآخرة ، ولن يستطيع نصرة الإيمان أبله ولا قاعد

وعندما تحول المسلمون إلى عالم ثالث أو رابع، نال منهم خصومهم، وأمسوا معرَّة لدينهم!!"[٤٨].

والصناعة والزراعة وكل الأعمال التي تحقق مقصد الإسلام الأعظم وهو جلب المنافع ودفع المضار عن الناس هي من الصالحات التي ذكرها الله في عشرات الآيات "وعملوا الصالحات" [العصر: ٣].

والشاهد أن الله نسب الفعل إلى الإنسان ومنه الزراعة، لكنه لفت الأنظار إلى أنه مالك الأسباب التي يستخدمها الإنسان في الزراعة فقال: {أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون} [الواقعة: ٦٤].

٦- الوحـــدة: الوحدة بين المسلمين هي فريضة ربانية، وهي من أهم وسائل تقوية الفاعلية، لأنها تؤدي إلى تقارب القلوب والقوالب، ومن المعلوم أن أقوى المعادن هو الماس نظراً لتقارب ذراته وعدم وجود فراغات بينها، ولكن لمن تُنسب هذه الوحدة؟

أ- وحدة الله: لقد امتن الله على نبيه محمد(ص) فقال {هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم} [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، ومع ذلك يطالب المسلمين ببذل الجهود الممكنة لتحقيق هذه الألفة وتلك الوحدة المنشودة.

ب- وحدة الإنسان: قال تعالى {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا} [آل عمران: ١٠٥]، وقال {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم} [الأنفال: ٤٦]. فنسب الوحدة إلى الإنسان بدعوته إياهم إلى عدم التفرق والاختلاف.

ج- تكامل الوحدتين: جمع الله بين مطالبته للمسلمين بالتوحد والاعتصام وتذكيره لهم بأن الأسباب لا تعمل لوحدها، حيث أن الله هو الذي يؤلف بين الناس، وخاصة العرب الذين كانوا- وما زالوا- مضرب المثل في التفرق والتشرذم وبروز الحس الفردي على حساب الحس الجمعي، قال تعالى {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً} [آل عمران: ١٠٣].

ومما يروى في سياق هذه الآية وأمثالها أن أحد أعلام المعتزلة كان يمنع الناس من أن يقولوا إن الله تعالى عز وجل ألّف بين قلوب المؤمنين وأضل الفاسقين (٤٩).

ويبدو لي أن ما فعله هذا المعتزلي يعود لسببين: الأول: سبب ذاتي وهو قراءته الجزئية للنصوص مع غلبة التكلف، والآخر: سبب موضوعي يعود إلى ميل العامة للفهم الجبري لمثل هذه الآية، حيث يجعلون الفرد كالريشة في مهب الريح ظانين أن ذلك من كمال التوحيد وتنزيهه، مما جعل بعض المعتزلة والقدرية يصل بهم الشطط إلى هذا الحد وأشد منه في بعض الأحيان!.

٧- الحكـــم: الحكم من المصطلحات التي وقع فيها الكثير من الخلط في التاريخ الإسلامي، حتى أنه كان القشة التي قصمت ظهر الخوارج، نتيجة الخلط بين حكم الله وحكم الناس .

أ- حكـم الله: لا شـك أن الله صاحب الحاكمية المطلقة {إن الحكم إلا لله}[الأنعام: ٥٧]، {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}[المائدة: ٤٤]. فقد نسب تعالى إليه الحكم وحده .

ب- حكـم الإنسان: قال الله عن نبيه يحيى عليه السلام {وآتيناه الحكم صبياً}[مريم: ١٢]، وعندما تشتد الخلافات الزوجية ويصل الزوجان إلى طريق مسدود، قرر القرآن أن يفوض كل طرف حكماً من قبله {فابعثوا حَكَماً من أهله وحكماً من أهلها}[النساء: ٣٥] وهكذا فإن الإنسان سيكون حَكَمَاً بجانب حكم الله، ولكن كيف؟

ج- تكامل الحكمين: لقد قال الله لرسوله(ص) : {فاحكم بينهم بما أنزل الله}[المائدة: ٤٨] بمعنى أن الإنسان يفهم مراد الله، ويفهم ملابسات القضية محل الاختلاف ثم يحاول تنزيل حكم الله الذي اجتهد في إدراكه على الواقعة محل النزاع، وبالتالي يكون الحكم للإنسان في مباشرته، لكنه في الأصل حكم الله .

وهذا هو الذي لم يدركه الخوارج عندما اعترضوا على الإمام علي بن أبي طالب عندما حكّم أبا موسى الأشعري بعد معركة صفين فخرجوا عليه رافعين شعار {إن الحكم إلا لله}[الأنعام: ٥٧] وذلك نتيجة قلة فقههم مع اعتقادهم أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة، ولذلك انطلقوا يُكَفِّرون بل ويحاربون بشراسة من لم يؤمن بفكرهم حتى أنهم كَفَّروا عليّاً واستحلّوا دمه، وهو أحد أبرز المبشرين بالجنة .

وعندما انحاز الخوارج إلى حروراء أرسل إليهم علي بن أبي طالب فقيه الأمة وحبرها عبدالله بن عباس ليناظرهم، ويتضح من خلال هذه المناظرة مدى جهلهم الشديد بالقرآن وخاصة مصطلح الحكم، ثم قام الإمام علي بمناظرة من لم يتب عن خطئه بعد مناظرة ابن عباس(٥٠) . وقد ظلت أزمة الخوارج مع القرآن موجودة حتى بعد هذا العصر وفي غير العراق، حيث ظهروا بقوة في شمال المغرب العربي، وقام بعضهم بالثورة على أميرهم حنظلة بن صفوان في مدينة طنجة التابعة للمغرب الآن، وذلك سنة١٢٢هـ، فما كان من حنظلة إلا أن جمع علماء أفريقيا الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقيا ليفقهوا أهلها فكتبوا رسالة عن القرآن قسمت القرآن إلى عشرة أنواع(٥١) .

ونختم هذه الفقرة بإيراد الحكاية التالية عن بعض الخوارج أيام الخليفة العباسي المأمون . فقد روي أن أحد الخوارج دخل على المأمون فقال له المأمون: ما حملك على خلافنا؟ قال: آية في

كتاب الله. قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} [المائدة: ٤٤] قال: ألك علم بأنها منزلة؟ قال: نعم. قال: وما دليلك؟ قال: إجماع الأمة. قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل فارض بإجماعهم في التأويل. قال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين(٥٢).

٨- البأس: نسب الله البأس في القرآن إلى نفسه، قال تعالى {كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا} [الأنعام: ١٤٨]، وفي آية أخرى نسب البأس إلى الإنسان، قال تعالى {وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم} [النحل: ٨١]. ولا شك أن الآيتين متكاملتان، كما رأينا في الفقرات السابقة تماماً.

ويشبه ذلك مصطلح "الرمي"، فقد أمر الله المسلمين بإعداد القوة {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} [الأنفال: ٦٠] وفسر الرسول(ص) القوة بالرمي، ومع ذلك نسب الله الرمي إلى نفسه في قوله تعالى {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} [الأنفال: ١٧].

٩- المصيبة: إن المصائب التي تنزل بالإنسان نسبها الله في مواضع إليه ونسبها في مواضع أخرى إلى الإنسان، وهي من المواضع الهامة التي ثار حولها الجدل واشتد عليها الخلاف.

أ- المصيبة المضافة إلى الله: نسب الله كل مصيبة تنزل بالناس إليه تعالى فقال {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب} [الحديد: ٢٢]، {ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله} [التغابن: ١١]، ولكن هل نزول المصائب حكم لازب من الله ولا دخل للإنسان فيه؟

ب- المصيبة المضافة إلى الإنسان: عندما انهزم المسلمون يوم أحد تساءلوا من أين جاءت هذه المصيبة فأعادها الله إلى أنفسهم وتقصيرها {أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم} [آل عمران: ١٦٥]. وقال تعالى {وما أصابك من سيئة فمن نفسك} [النساء: ٧٩].

ووضع الله قانوناً عاماً في المصائب يقول{ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير} [الشورى: ٣٠]. يقول محمد فتح الله كولن: "والحقيقة إن معرفة الإنسان بأن المصائب التي تصيبه هي نتيجة أعماله وما اقترفته يداه هي من أمر القرآن. وأي تفكير مخالف لهذا يسوق الإنسان إلى التفتيش عن متهم ومذنب خارجي" (٥٣).

ج- تكامل المصيبتين: إن الله هو محرك الأسباب لكي ينزل العقاب (المصيبة) بالمذنب، لكن المصيبة لا تنزل إلا بذنب، بمعنى أن الإنسان هو الذي يجلب المصائب لنفسه، قال تعالى

{فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم} [النساء: ٦٢] ، وقال {فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} [المائدة: ٤٩]. أما الآية التي تَوَهَّمَ الجبريون أنها تؤصل لوقوف الله وراء المصائب بدون أسباب وهي {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها} [الحديد: ٢٢] فإنه تعالى أردا بإثبات القدر بهذه الطريقة أن يوفر للمصابين قدراً من التوازن النفسي بحيث لا يتعامل الإنسان مع الأسباب تعاملاً آلياً فيفرح بالنعمة حتى البطر ، ويحزن من النقمة حتى الهلاك ، ولذلك اتبع الآية الأولى بإثبات هذه الفائدة للإيمان بالقدر فقال تعالى {لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم} [الحديد: ٢٣].

وهكذا يعطي تكامل المصيبتين ثمرتين عظيمتين للإنسان ، الأولى : أنها توفر له التوازن النفسي المطلوب والأخرى : تدفعه إلى مراقبة نفسه ومحاسبته ، وممارسة النقد الذاتي وتحمل مسؤولية نفسه ، والتعامل بحذر مع عالم الأسباب .

١٠ـ الأجل : المدة المضروبة للشيء ، قال تعالى {ولتبلغوا أجلاً مسمى} [غافر: ٦٧] ، {أيما الأجلين قضيت} [القصص: ٢٨] (٥٤) . وفي مفردات الأجل والموت والوفاة وردت آيات عدة تنسب الفعل إلى الله تارة وإلى الإنسان تارة أخرى .

أ- أجل الله : عن الأجل قال الله تعالى ناسباً إياه إليه {إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر} [نوح: ٤] ، وفي الوفاة قال {والله خلقكم ثم يتوفاكم} [النحل: ٧٠] ، {الله يتوفى الأنفس حين موتها} [الزمر: ٤٢] . وفي الموت قال {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم} [البقرة: ٢٨] ، {وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم} [الحج: ٦٦] . ولكن أين موقع الأسباب في حفظ الحياة أو نزول الموت ؟

ب - أجل الإنسان : عن نسبة الأجل إلى الإنسان قال تعالى {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} [الأعراف: ٣٤] ، {ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها} [المنافقون: ١١] ، وفي الوفاة قال {والذين يتوفون منكم} [البقرة: ٢٣٤] ، أما الموت فقد نسب القرآن الموت إلى الإنسان في عشرات المواضع ، مثل قوله تعالى {أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم} [آل عمران: ١٤٤] ، {والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت} [مريم: ٣٣] ، {وما تدري نفس بأي أرض تموت} [لقمان: ٣٤] .

ج - تكامل الأجلين : مع أن أكثر العلماء يتحدثون عن أجل واحد ، إلا أن هناك من العلماء من ذهب إلى أن هناك أجلين في حياة الإنسان (٥٥) . ومن العلماء الذين انحازوا إلى قضية امتلاك

الإنسان لأجلين الإمام الشوكاني (ت/١٢٥٠هـ) الذي ألف رسالة خاصة بهذا الموضوع تحت عنوان (تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل) أورد فيه الدلائل على أن عمر الإنسان يزيد زيادة حقيقية بعمل الصالحات والدعاء وصلة الأرحام ، وأنه ينقص بعكس هذه المفردات (٥٦) .

وتوصل في هذه الرسالة القيمة إلى القول "وبالجملة فهؤلاء الغلاة الذين قالوا إنه لا يقع من الله إلا ما قد سبق به القلم ، وأن ذلك لا يتحول ولا يتبدل ولا يؤثر فيه دعاء ولا عمل صالح فقد خالفوا ما قدمنا من آيات الكتاب العزيز ومن الأحاديث النبوية الصحيحة من غير مُلجئ إلى ذلك" (٥٧) . ويبدو للباحث أن ما توصل إليه الإمام الشوكاني هو الحق الذي يتفق مع منهج القرآن في مثل هذه الموضوعات التي تضمنها هذا البحث ، فضلاً عن اتفاقه مع حقائق الواقع ، فمع أن الرسول حدد أعمار هذه الأمة بين الستين والسبعين ، إلا أن بعض بلدان المسلمين وصل متوسط العمر فيها دون الخمسين كأفغانستان واليمن ، بينما يرتفع في دول مثل السعودية فوق السبعين ، بل ووصل في دول غير إسلامية كاليابان إلى قرابة التسعين عاماً "٨٩سنة" ، بما يؤكد أن العناية بالإنسان والمحافظة على حياته وصحته ، والاهتمام بغذائه ودوائه ، لا بد أن يكون له أثر إيجابي في رفع متوسط عمره ، فكأن الموت غير الطبيعي هو أجل الإنسان ، والموت الطبيعي هو أجل الله ، وفي كلا الحالتين فإن مشيئة الله حاضرة ، لأن هذه المشيئة قضت بان من يسير وفق أسباب الصحة سيطول عمره ، والعكس صحيح ، وإذا حدث الاستثناء فهو من أجل لفت الأنظار إلى مالك الأسباب حتى لا يركن الناس إلى الأسباب وحدها .

١١- الهلاك : نسب الله الهلاك والقتل إلى نفسه تارة وإلى الإنسان تارة أخرى ، وكذلك في القيمة النقيض لهما وهي النجاة .

أ - الإهلاك المضاف إلى الله : قال تعالى عن الهلاك {ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض} [الأنعام: ٦] وقال عن القتل {فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم} [الأنفال: ١٧] .

وقال عن النجاة في المقابل {فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون} [العنكبوت: ٦٥].

ب - هلاك الإنسان : ونسب الهلاك إلى الإنسان ، قال تعالى {ليهلك من هلك عن بينة} [الأنفال: ٤٢] ، ومثل ذلك قال عن القتل {يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون} [التوبة: ١١١] ، {من قتل نفساً بغير نفس} [المائدة: ٣٢] ، وفي الشق الآخر نسب النجاة إلى الإنسان أيضاً ، قال

تعالى {وقال الذي نجا منهما} [يوسف: ٤٥] .

ج ـ تكامل الهلاكين : من الواضح ارتباط هذه القيم بالإنسان من جهة الأسباب ، وبالله من جهة الملكية ووضع قوانين الحياة ، ويؤكد ذلك قوله تعالى {فأهلكناهم بذنوبهم} [الأنعام: ٦]، {وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا} [الكهف: ٥٩] .

وإذا تعرض الإنسان لأسباب القتل فإنه سيقتل ، وإذا أخذ بأسباب النجاة فإنه سينجو ، وهكذا تتكامل آيات القرآن في الدعوة إلى الربط الوثيق بين استنفاذ الأخذ بالأسباب واستكمال التوكل على الله والالتجاء إليه .

١٢ ـ النصر : ونصل إلى مسك الختام ، حيث أن النصر والوراثة للأرض منحة من الله لأوليائه ، ما أخذوا بأسبابهما .

أ ـ نصر الله : نسب الله النصر إلى ذاته فقال {وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم} [آل عمران: ١٢٦] ، {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا} [غافر: ٥١] ، {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة} [آل عمران : ١٢٣] ، {بنصر الله ينصر من يشاء} [الروم: ٥] .

والوراثة مثل النصر ، قال تعالى {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها} ، {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده} [الأعراف: ١٢٨] .

ب- نصر الإنسان: نسب الله النصر والوراثة في المقابل إلى الإنسان فقال: {والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض} [الأنفال: ٧٢] ، {أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم} [الأعراف: ١٠٠] ، فمن أين يأتي النصر؟.

ج ـ تكامل النصرين :

أوضح القرآن بجلاء الارتباط الوثيق بين نصر الله وانتصار الإنسان ، وهي العلاقة القائمة بين المقدمات والنتائج أو بين المدخلات والمخرجات ، قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم} [محمد: ٧] ، {ولينصرن الله من ينصره} [الحج: ٤٠] ونصر الله يكون بسلوك صراطه المستقيم المتضمن للأخذ بالأسباب واستثمار السنن والنواميس .

وفي الوراثة ذات المنهج الرباني ، قال تعالى {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥] والصالحون هنا هم الآخذون بسنن الله في عمارة الأرض فضلاً عن التزامهم بالقيم العامرة للحضارات ، وقد بين الله صفات وراثة الأرض ومن ثم وراثة الجنة ، فقال {قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم

للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك هم الوارثون} [المؤمنون: ١-١٠].

وهكذا نصل إلى أن النصر والتمكين ووراثة الأرض هي ملك ذواتنا ومجتمعاتنا ، ومن هنا أطلق الله قانونه الأساسي في هذا المجال ، حيث قال {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} [الرعد: ١١].

" إن على الإنسان أن يتحرك وأن يغير وأن يبدل ويبني ويأخذ بالأسباب ولا ينتظر المفاجآت لأنه بطل التغيير . والحركة والتغيير لا يمكن أن تتما إلا إذا غيَّر الأفراد ما بأنفسهم وأخذوا بالأسباب ، وتحركوا بتخطيط وتنظيم ، أما إذا حدث عكس ذلك فإن القانون الإلهي سوف يحدث حين ينعدم الإصلاح والتخطيط والتنظيم وحين ينعدم تغيير ما بالنفس" (٥٨) .

ونختم هذا البحث الذي نرجو أن يكون زكياً بمسك ابن القيم الذي اختزل ما فعلناه في هذا البحث بكلمات قليلة تقول : " وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة ، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ، ترتب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع" (٥٩) . "وبالجملة : فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب ، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال . ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلاً منه ، وعجزاً وتفريطاً وإضاعة ، فيكون توكله عجزاً ، وعجزه توكلاً . بل الفقيه كل الفقه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر.." (٦٠) .

الخاتمـــة

إن الفهم المختل للقدر ، أحاله في فكر وفعل أكثر المسلمين إلى إيمان جبري ، إذ يُحمل القدر بوعي وبدونه مسؤولية أخطاء وخطايا الأفراد والجماعات والدول ، وتشيع ثقافة السلبية والانتظار ، بدلاً من التعويل على الذات ، وتتسيَّد قيم البطالة والعطالة ، وتحتل مفاهيم الخضوع والخنوع واللامبالاة مكانة مركزية في حياة أصحابه ، إذ يُسْلمهم هذا الفهم إلى الغثائية التي تعطل العقل وتصنع أرضاً خصبة لاستنبات الاغتراب الفكري ، سواء تجسد ذلك بالفناء في التراث بكل ما فيه من غث وسمين ، أو بالذوبان في الغرب بكل ما عنده من إيجابيات وسلبيات .

أما القدر كما هو في القرآن وفي فهم الجيل الراشدي الأول ، فقد كان ـ وما زال ـ يمتلك طاقة هائلة يمكنها دفع الأفراد والكيانات الإسلامية إلى تفعيل مواهبها وقدراتها ، لأن القرآن يثبت للإنسان فاعلية واختياراً في دوائر : الأقدار النفسية بكل مفاهيمها من المشيئة إلى الإرادة إلى الأمر إلى الإيمان إلى التزكية ثم الثبات . وكذلك في الأقدار العلمية من الفقه إلى السمع ثم الهداية ثم الفتنة .

وفي الدائرة العملية يمتلك الفرد ذات الفاعلية والقدرة والاختيار بكل حلقاتها ونواحيها المذكورة في القرآن : الجعل ، الإصلاح ، الضحك ، الرزق ، الصناعة ، الوحدة ، الحكم ، البأس ، المصيبة ، الأجل ، الهلاك ، النصر .

في هذه الدوائر الثلاث بما يتبعها من مفاهيم وقيم وعمليات أثبت الله للإنسان إرادة وفاعلية واختياراً ، وبها يُقْدم الإنسان أو يُحجم ، يتقدم أو يتأخر ، يعتز أو يذل ، يقوى أو يضعف ، يغتني أو يفتقر ، يعمل أو يمارس البطالة ، يصلح أو يفسد ، ينتصر أو ينهزم ، وبالتالي فإنه يصنع حياته كما يريد ، ويحدد مستقبله الأخروي كما يشاء .

والفرق بين المسلم وغيره من الماديين في معانقة الأسباب ، أنه مع السير وفق السنن واستثمارها في عمارة الحياة ، فإنه لا يتكل عليها على المستوى العقلي والنفسي ، وإنما يدرك تماماً أنها لا تعمل بتلك الكيفية إلا لأنَّ مشيئة الله اقتضت ذلك ، وأنه تعالى بقدراته الخارقة قادر على تعطيل هذه السنن إذا أراد ، وأنه قد يتدخل أحياناً بالسنن الخارقة ، بمعنى أن المسلم يؤمن أن السنن الجارية التي تنظم حركة الكون والمجتمعات ، إنما تستمد فاعليتها من الله ، وهذا يزيد المسلم طاقة فوق طاقته الاعتيادية ، وبهذا صارت فاعليته أعلى من فاعلية غيره ، مهما كان التزامه بالسنن والأسباب ، لأن هذا الغير لا يجد هذا النصير وذاك الوكيل ، وليس له أي سند أو ركن يأوي إليه غير تلك الأسباب ، فماذا يعمل إذا لم تكن موازينها لصالحه؟

الهوامش

(١) انظر : د. عبدالرحمن حبنكة الميداني : معارج التفكر ودقائق التدبر. ط١(دمشق : دار القلم، ١٤٢٠ ـ ٢٠٠٠) ، ٢/ صـ٢٦٢ ـ ٢٧٨ .

(٢) نفسه : ٢/صـ٢٢٨ .

(٣) الشيخ محمد عبده : فاتحة الكتاب وجزء عم . ط١(القاهرة : كتاب جريدة الجمهورية ، د. ت.) ، صـ٨١ .

(٤) د. عبدالرحمن الميداني : معارج التفكر : ٣/٤٨٥ .

(٥) انظر كتابه : الفِصَل في الملل والأهواء والنحل . تحقيق : د. يوسف البقاعي . ط١(بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٢٢ ـ ٢٠٠٠) ، ٢/صـ٧٤ ـ ١١٠ .

(٦) الجهمية هم أتباع الجهم بن صفوان الذي أسس الفرقة الجبرية في فهمها للقدر ، وهو من مؤسسي الفكر الإرجائي في التعامل

مع الإيمان، توفي سنة١٢٨هـ/٧٤٥م .

(٧) ابن حزم: الفِصَل: ٢/صـ٤٩ .

(٨) نفسه: ٢/صـ٧٢، ٧٣ .

(٩) عبدالقاهر الجرجاني(تـ/٨١٦هـ): التعريفات (القاهرة: مكتبة القرآن للطباعة والنشر، د.ت.)، صـ٢٣ .

(١٠) بتصرف عن: الراغب الأصفهاني(ت/٥٠٢هـ): المفردات في غريب القرآن . مراجعة: وائل أحمد عبدالرحمن (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت.)، صـ٢١٢ .

(١١) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم(بيروت: دار الفكر، ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧)، صـ٣٢٦ ـ ٣٢٨ .

(١٢) عمر عبيد حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة . ط١(فيرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٢ ـ ١٩٩١)، صـ٥٨ .

(١٣) انظر على العموم كتابنا: تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بالمجتمعات الإسلامية . ط١(صنعاء: نفت للخدمات العامة، ١٤٢٩ ـ ٢٠٠٨) .

(١٤) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير (تونس: دار سحنون، د.ت.)، ١٣/صـ٢٠٣، وراجع تفسير الآية: ١٣/صـ١٨٧ ـ ١٩٠ .

(١٥) انظر مثلاً: أبو الحسن الندوي: المدخل إلى الدراسات القرآنية- مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به، أضواء على وجوه الإعجاز والعلوم القرآنية . ط١(القاهرة: دار الصحوة، ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦)، صـ١٣٧، ١٣٨ .

(١٦) الراغب الأصفهاني: المفردات: صـ٣٤(بتصرف) .

(١٧) عبدالرحمن السيوطي(تـ/٩١١هـ): أسباب النزول . تحقيق: حامد الطاهر . ط١(القاهرة: دار الفجر للتراث، ١٤٢٣ ـ ٢٠٠٢)، صـ٩٤ .

(١٨) انظر: السيوطي: المرجع السابق: صـ٩٤، ٩٥ .

(١٩) نفسه: صـ٩٨ .

(٢٠) انظر: أبو الحسن الماوردي(تـ/٤٥٠هـ): أدب الدنيا والدين(المنصورة- مصر: مكتبة الإيمان، د.ت.)، صـ٣٠٦ ـ ٣١٢ .

(٢١) انظر: ابن منظور المصري(تـ/٧١١هـ): لسان العرب . ط١(بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ٣/صـ١٩٢، إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط (استانبول ـ تركيا: دار الدعوة، ١٩٩٠)، ١/صـ٣٩٦، ٣٩٧ .

(٢٢) انظر: د. يوسف الإسلام علي مطر: التغير الاجتماعي. ط٢ (المنصورة ـ مصر: دار الوفاء، ١٤٠٩، ١٩٨٨)، صـ٥١- ٥٧ .

(٢٣) انظر مثلاً: الماوردي: أدب الدنيا والدين: صـ١٠٥، عبدالرحمن بن الجوزي(تـ/٥٩٧هـ): صيد الخاطر . ط٣(المنصورة: دار اليقين، ١٤١٩ـ ١٩٩٨)، صـ١٨٠، ١٨١، د. يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف . ط٣(القاهرة: دار الصحوة، المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٥ ـ ١٩٩٤)، صـ٥٦، ٥٧ .

(٢٤) ابن قيم الجوزية: الفوائد . ط١(القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٤ ـ ٢٠٠٣)، صـ١٤٥ .

(٢٥) الراغب الأصفهاني: المفردات: صـ٨٤ .

(٢٦) انظر: ابن منظور: لسان العرب: ٣/صـ٣٢، مجد الدين الفيروز آبادي(تـ/٨١٧هـ): القاموس المحيط . ط٢(بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧)، صـ١٢٩٧، محمد بن أبي بكر الرازي(تـ/٦٦٦هـ): مختار الصحاح . دراسة وتقديم: د. عبدالفتاح البركاوي(الكويت: دار المنار، د.ت.)، صـ١٢٢، إبراهيم مصطفى: المعجم الوسيط: ١/صـ٣٢٧، الجرجاني:

التعريفات: صـ٦١ .

(٢٧) انظر مثلاً: عبدالرحمن الميداني: معارج التفكر: ٢/صـ٤٩٠ ـ ٤٩٣ .

(٢٨) انظر: زين الدين الزبيدي: مختصر صحيح البخاري (القاهرة: مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٦)، رقم الحديث٥، صـ١١ .

(٢٩) انظر: الراغب الأصفهاني: المفردات: صـ٣٨٥ .

(٣٠) أخرجه البخاري(زين الدين الزبيدي: مختصر صحيح البخاري، رقم٦٣، صـ٢٧) .

(٣١) ابن جرير الطبري(ت/٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: بشار عواد، عصام الحرستاني. ط١(بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٥ ـ ١٩٩٤)، ٣/صـ٥٢٧ .

(٣٢) راجع تفسير هذه الآية عند محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: ٤/صـ٤١٨ ـ ٤٢١ .

(٣٣) راجع تفسير هذه الآية عند د. عبدالرحمن الميداني: معارج التفكر: ٣/صـ٣٧٢، ٣٧٣ .

(٣٤) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: صـ٤٢٥ .

(٣٥) ابن جرير الطبري: جامع البيان: ٣/صـ٤٩٨، ٤٩٩ .

(٣٦) نفسه: ٣/صـ٤٩٩، ٥٠٠ .

(٣٧) بتصرف عن: الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت/١٧٥هـ): كتاب العين. تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي(القاهرة: دار ومكتبة الهلال، د.ت.)، ١/صـ٣٤٨، ابن منظور: لسان العرب: ٣/صـ٣٣٥ ـ ٣٣٧، إبراهيم مصطفى: المعجم الوسيط: ١/صـ٤٤٩، ٤٥٠.

(٣٨) تقي الدين بن تيمية(تـ٧٢٨هـ): الإيمان. تحقيق: عصام الدين الصبابطي. ط١(القاهرة: دار الحديث، ١٤١٥ ـ ١٩٩٤)، صـ٣٠ .

(٣٩) تقي الدين بن تيمية: الاستقامة. ط١(بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٤ ـ ٢٠٠٤)، صـ٢٣٠ .

(٤٠) انظر: ابن منظور: لسان العرب: ٦/صـ٣١٩ ـ ٣٢١، إبراهيم مصطفى: المعجم الوسيط: ٢/صـ٩٧٨، ٩٧٩.

(٤١) د. فؤاد البنا: تدبر القرآن: صـ٢٠٦ .

(٤٢) سعيد حوى: الأساس في التفسير. ط٢(القاهرة: دار السلام، ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩)، ٣/صـ١٣٥٠.

(٤٣) الراغب الأصفهاني: المفردات: صـ٣٧٣، ٣٧٤ .

(٤٤) راجع هذه الآيات وشرحها والأحاديث المفسرة لها في: أبو بكر البيهقي(تـ٤٥٨هـ): القضاء والقدر. تحقيق: أبو إسحاق السمنودي(سمنود ـ مصر: مكتبة ابن عباس، د. ت.)، صـ١٨٠ ـ ١٨٩.

(٤٥) الراغب الأصفهاني: المفردات: صـ١٠١ .

(٤٦) انظر: أبو بكر البيهقي: القضاء والقدر: صـ١٤١ ـ ١٤٥ .

(٤٧) الراغب الأصفهاني: المفردات: صـ٢٩٠ .

(٤٨) محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ـ الأجزاء العشرة الأخيرة. ط١(القاهرة: دار الشروق، ١٤١٥ ـ ١٩٩٥)، صـ٢٧ .

(٤٩) عبدالقاهر البغدادي(ت/٤٢٩هـ): الفرق بين الفرق. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت.)، صـ١٧٤.

(٥٠) حول هذه المناظرة انظر: د. علي الصلابي: أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (الإسكندرية: دار الإيمان، ٢٠٠٣)، صـ٦٤٠ ـ ٦٤٥، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين. ط١(بيروت: دار إحياء التراث

العربي، ١٤٢٢ـ ٢٠٠١م) ، ١/صـ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٥١) انظر: د. علي الصلابي: عمر بن عبدالعزيز- معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة . ط١(القاهرة: مؤسسة اقرأ، ١٤٢٦ـ ٢٠٠٥) ، صـ٢٣٥ .

(٥٢) عبدالرحمن السيوطي: تاريخ الخلفاء: صـ٢٥٥ .

(٥٣) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان . ترجمة: أورخان محمد علي . ط١(استانبول: دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠٠٣)، صـ٣٣٧ .

(٥٤) الراغب الأصفهاني: المفردات: صـ٢٠ .

(٥٥) انظر: الراغب الأصفهاني: المفردات: صـ٢٠، ٢١ .

(٥٦) انظر: محمد بن علي الشوكاني(ت/١٢٥٠هـ): تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل . تحقيق: الشيخ عقيل المقطري . ط١(صنعاء: مكتبة دار القدس، ١٤١١ـ ١٩٩٠).

(٥٧) نفسه: صـ٤٥ .

(٥٨) د. سيف الإسلام علي مطر: التغير الاجتماعي: صـ٩٥ .

(٥٩) ابن قيم الجوزية(ت/٧٥١هـ): الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي . اعتنى به: محي الدين الشامي . ط٢ (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، د.ت.) ، صـ٢٤.

(٦٠) نفسه: صـ٢٦ .